تمظهرات الفن التشكيلي في حفظ تراث غرداية

Manifestations of plastic art in preserving the heritage of Ghardaia

علي مالكي [1*]، د. قجال نادية [2]

[1] جامعة عبد الحميد بن باديس, مستغانم, الجزائر ,malkiali1981@gmail.com

[2] جامعة عبد الحميد بن باديس, مستغانم, الجزائر guedjal @yahou.fr

تاريخ الاستلام: 2021/04/20 تاريخ القبول: 2021/05./17 تاريخ النشر: 2021/06/03

ملخص:

يحمل الفن التشكيلي في طياته رسائل معبرة وصور فياضة عن المكتسبات المادية والمعنوية عبر العصور ؛ فقد ساهم في نقل وسرد الأحداث والشواهد التي مرت بها الأمم السابقة ؛ وقص علينا التاريخ والتراث من خلال الأعمال الإبداعية الصامتة الناطقة ؛ وفي الجزائر تشهد المصادر الفنية التشكيلية المتعددة في فنون ما قبل التاريخ وفي الفن الفينيقي والفن البربري والفن العربي الإسلامي و الفن الاستشراقي على الرصيد الفني الضارب في عمق التاريخ و المنتشر في ربوعها ؛في بحثنا نتطرق إلى دور و اثر الفن الاستشراقي في تسجيل التراث والتاريخ ونقل صورة غرداية الحضارية و الجمالية التي نالت الإعجاب من قبل الفنانين المستشرقين فوثقوا الزمان والمكان

الكلمات المفتاحية : الفن التشكيلي , غرداية, التراث , الاستشراق.

Abstract:

Plastic art carries within it expressive messages and images overflowing with material and moral gains through the ages. It contributed to the transmission and narration of events and testimonies experienced by previous nations; And tell us history and heritage through silent speaking creative works; In Algeria, the numerous plastic art resources in prehistoric arts, Phoenician art, Berber art, Arab-Islamic art, and Orientalist art attest to the artistic balance that strikes deep in history and is spread throughout it; Ghardaia's civilizational and aesthetic image that was admired by oriental artists, so they documented time and place.

* المؤلف المرسل : علي مالكي

المنارة للاستشارات

ww

Keywords: Plastic Art , Ghardaia, Heritage, Orientalism.

1. مقدمة:

مثّل الفن دورا هاما في سرد التاريخ الثقافي للجزائر وفتح لنا نوافذ تطل على عصور مختلفة تسافر بنا إلى ما قبل التاريخ وتستحضر الماضي العريق للحضارات التي تعاقبت على بلادنا وتوثق لكل فترة بما بقي من آثار وشواهد تشكيلية .

و لا شك ان فترة التواجد الكولونيالي الفرنسي في الجزائر تعتبر ضربة قوية للذاكرة الحضارية الجزائرية نظرا للسياسة الاستعمارية التي انتهجت مخطط طمس الثقافة والهوية الجزائرية عبر التجهيل والتجويع و تدمير البنى التحتية و المعالم الحضارية وإحراق المكتبات وإغلاق المدارس العربية وهدم المساجد فلم يبق بذلك مرتع للفنون المحلية الموروثة وآلت الصنائع الفنية إلى شبه الاندثار .

وبالمقابل انتشر الفن الغربي في الجزائر ورافق الرسامون الحملات التوسعية الفرنسية وخلدوا انتصارات الجيش الفرنسي في لوحاتهم ووظف فن الرسم في دراسة المجتمع الجزائري وفهم خباياه والترويج لجماله بما يخدم استقدام المزيد من المستوطنين الأوروبيين ويروي عطش الفنانين الميالين إلى سحر المناظر الشرقية .

, وهكذا نقل الفنانون المستشرقون الأساليب الفنية الغربية الحديثة إلى الضفة الجنوبية للبحر الابيض المتوسط ولا شك أن هذا أثر في الممارسة التشكيلية الجزائرية فيما بعد لكن ما يجب التأكيد عليه أن تأسيس المدارس الفنية الفرنسية في الجزائر لم يكن بنية تطوير المواهب الجزائرية ولا كرما أو حبا في الأهالي فالشعب الجزائري لم يكن بمقدوره الالتفات إلى الفنون في صراعه لكسب قوت يومه وقد ناله من ناله من التجويع و القمع و الحرمان من التعليم .

ومهما يكن من أمر فإن الفنانين المستشرقين على اختلاف أهدافهم ونواياهم أعجبوا و انبهروا بالجمال الفاتن لمناطق الجزائر الواسعة التي تفيض بمخزون فني وتراثي كبير، فتأثروا واثروا في البيئة الجزائرية التي يحلم بها معظم الفنانين الغربيين وقد أشار

المنارة للاستشارات

(ثيوفيل غوتييه) إلى أهمية و مكانة الجزائر بالنسبة للرسامين المستشرقين بقوله :" إن السفر إلى الجزائر يضاهي في أهميته ضرورة الحج إلى ايطاليا"(Gautier, 1845, 92)

وتشهد الأعمال الفنية التشكيلية المنجزة من طرف العديد من المستشرقين على عراقة منطقة غرادية ، فقد ألهمت المنطقة عبر ربوع حقبها المؤرخين و الأثريين والفنانين للخوض في معمارها الأثري و واحاتها الغناء و كل الجوانب الاجتماعية من عادات و تقاليد و طقوس ، ولعل من أهم العناصر التي مارست سحرا لا يقاوم في الفنان المستشرق وأضفت على عمله قيمة فنية هي الصحراء بتفككات لونها الأمغر والتي جسدت معاني الجمال و الأفق المهيب في تحف فنية مختلفة خلدت المكان والزمان والبيئة .

على أن الفن التشكيلي ليس ريشة ولوحة ورسمه ،بل هو أيضا وسيلة إعلام واتصال عابرة للمكان والزمان تستحضر الماضي والحاضر وهي التاريخ الشاهد بكل معانيه.

ومن بين الفنانين المستشرقين الذين أثرت فيهم المنطقة نذكر : (ألبرت قبريال Albert-Gabriel) ، (سيمون موندزن Simon Mondzain) ، (موريس بوفيول Maurice Bouviolle)... وغيرهم .

إن هذا التقديم الموجز يحفزنا لفحص الأساليب الفنية المتبعة في تمثيل مشاهد منطقة ميزاب و سبر غور مساهمة الفن التشكيلي في حمل معاني التراث المادي واللامادي لمنطقة غرداية

فرضيات البحث

- ساهم التصوير الاستشراقي في رصد بعض الجوانب الثقافية في منطقة غرداية
- دوافع الاستشراق الفني عديدة و مختلفة إلا أنه بالإمكان الاستفادة منه في ترميم الذاكرة

أهداف البحث

إبراز صورة الفن التشكيلي ودوره في تسجيل وتوثيق تاريخ وتراث منطقة غرداية من خلال دراسة تحليلية سيميولوجية لبعض النماذج التشكيلية لثلة من الفنانين المستشرقين الذين زاروا المنطقة وساهموا في رصد التاريخ الفني والحضاري لها

منهج البحث

يتبع البحث المنهج التاريخي والمنهج التحليلي والمنهج المقارن ،

المنارة للاستشارات
ww

الدراسات السابقة .

كتاب ماريون فيدال بوي جزائر الفنانين

- مقال في المجلة المحكمة إنسانيات للدكتورة نادية قجال موسوم "بالوظائف الأساسية للفن الاستشراقي قبيل وإبان الاستعمار الفرنسي للجزائر " يبرز البعد الاستعماري للوحة الاستشراقية وينبه إلى الإيديولوجيات الكامنة فيها و كيف يمكن غربلتها من الزيف والتحريف وتمحيص ما يفيدنا في التوثيق وكتابة التاريخ

- زيتوني عبد الرزاق و بلبشير عبد الرزاق, مقال موسوم ب" الفن التشكيلي و إسهاماته في توثيق تاريخ وتراث الجلفة" في مجلة افاق فكرية جامعة سيدي بلعباس ، يعرض البحث دور الفنون التشكيلية الاستشراقية في توثيق التراث وتسجيل التاريخ في منطقة الجلفة ودور الفن الاستشراقي في الجزائر

I- 1 - غرداية

تقع مدينة غرداية (تغردايت) شمال صحراء الجزائر ، ومقر الولاية بلدية غرداية تبعد عن العاصمة ب600 كلم جنوبا ، مساحتها الإجمالية تقدر ب 86105 كلم^2، امتدادها من الشمال إلى الجنوب 450 كلم، ومن الشرق إلى الغرب من 200 إلى 250 كلم ترتفع عن مستوى سطح البحر ب 486 م. تنحصر تخومها بين عدد من الولايات الأغواط والجلفة شمالا، البض وأدرار غربا، ورقلة شرقا، وتمنراست جنوبا. تبعد مدينة غرداية بـ 200 كلم عن ولاية الأغواط، و 200 كلم عن ولاية ورقلة، و 840 كلم عن ولاية أدرار وب 1400 كلم عن ولاية تمنراست ويعبرها الطريق الوطني رقم 1 الرابط للعاصمة الجزائرية بالجنوب الكبير (https://ar.wikipedia.org/wiki/غرداية)

وتمتد الجذور التاريخية لهذه المدينة إلى عصور ما قبل التاريخ حيث تزخر بعدة مناطق تحتوي على آثار ضاربة في القدم تشهد على الزمن الجيولوجي الرابع. فقد اكتشفت في المنطقة آثار لإنسان ما قبل التاريخ، وهذا في الحقيقة ما توصلت إليه الأبحاث والحفريات التي قام بها كل من (بيار روفو، إيف بونيه، جوال أبونو، نجيب فرحات، مليكة حشيد)، وغيرهم

المنارة للاستشارات

أ) الصناعة الحجرية:

-موقع منطقة المنيعة- موقع منطقة متليلي -موقع منطقة نوميرات - موقع منطقة لعذيرة بغرداية.

ب) الآثار الجنائزية:

-موقع أعمود لعميد بالقرارة -.موقع قارة الطعام ببونورة. -موقع بوهراوة بغرداية.

ج) النقوش الصخرية المنتشرة في عدة مناطق:

-موقع أوخيرة بالعطف - موقع أنتيسا و مومو ببني يزقن -موقع بوهراوة بغرداية-موقع القصر القديم بابا السعد بغرداية.

-موقع سيدي أمبارك ببريان - موقع عطفة الكتبة بضاية بن ضحوة -وكذلك على طول ضفتي واد ميزاب.

وورد في البحوث العلمية، أن هذه النقوش عمرها يتراوح ما بين 18000 و 5000 سنة قبل الميلاد ترجع لفترة الليبيكو بربار من عصر البرونز (وزراة الثقافة، غرداية ،الجزائر، 2015،3) وقد تم العثور على أثار إنسان ما قبل التاريخ بالمنطقة ونشير هنا إلى ما اكتشفه الأستاذان : "بيار روفو"، ثم "جوال أبونو" حيث أحصى الأستاذ " بيير" إحدى عشر (11) محطة (Roffo, 1934, 125) تزخر برسومات متعددة المضامين منها الحيوانية والهندسية، ومنها ما يجسد عناصر من جسم الإنسان، كاليد والرجل، فيما ضمت بعض الصخور رموزا بربرية . و الجدير بالذكر أن ليس ثمة من الآثار ما يؤكد الحضور الروماني،أو الوندالي، أو البيزنطي، ويتضح أن التواجد الروماني بقي على حدود واد الجدي بالصحراء فيما كانت منطقة عبور لقوافل القبائل الزناتية. (Couvions , 1926,217)

تزخر غرداية بقصورها التي تعتبر من الإرث الحضاري و تجسد أبرز سمات التراث الثقافي للولاية، ونذكر منها قصري بريان والقرارة شمالا وقصري متليلي والمنيعة جنوبا ،وبينها يتراءى للزائر إقليم وادي ميزاب وتنتصب هناك خمسة قصور بواحاتها الغناء الممتدة على طول مجرى الوادي، كما شهدت المنطقة العديد من القصور التي أتى عليها الدهر وآلت إلى الاندثار ولم يبق كنها سوى بعض أطلالها ، و عرفت عددا كبيرا من المعالم التاريخية المنتشرة عبر القصور والواحات وضواحيها وترتّب هذه القصور زمنيا كالتالي: العطف، بنورة، غرداية، بني يزقن، مليكه. ولا شك أن هذا الثراء المعماري التاريخي والتنوع

المنارة للاستشارات

التراثي أهل قصور الولاية لتصنيفها ضمن التراث الوطني، وقد أشاد المهندس (لوكوربيزييه) ببراعة الهندسة المعمارية التراثية الميزابية و تمتاز بالتكيف مع المناخ الصحراوي الحار، الجاف صيفا والبارد شتاء من خلال الاستغلال الأمثل لمواد البناء المحلية، والتوجيه المناسب للاستفادة من أشعة الشمس والتهوئة. (وزراة الثقافة، غرداية ،الجزائر، 2012، 7-8) كما صنف سهل وادي ميزاب في قائمة التراث العالمي لمنظمة اليونسكو سنة 1982. وقررت وزارة الثقافة الجزائرية أن تتخذ منه قطاعا محفوظا عام 2005 .

و أما عن أصول سكان غرداية القدامى فإن ثمة روايات مختلفة نسبيا غير أنها تتفق عموما على أن السكان في هذه الولاية هم من العرب، والبربر امتزجت أنسابهم مع مرور الزمن، حتى بات من غير الممكن اليوم نسبة جماعة إلى عرق محدد فالسكان الأصليون الذين أقاموا في أرجائها قدموا من مختلف أنحاء الجزائر ومن من مختلف أصقاع الوطن العربي(إبراهيم محمد طلاي،ب ت ،9)

و يعود الكن في ربوع هده البقعة إلى آلاف السنين وتثبت النقوش البربرية على الصخور أنها قد عمرت ما يقارب 30 قرنا قبل الميلاد و توالت عليها أجيال وأجيال وقامت بها الكثير من القرى والقصور البربرية أو ما يعرف بآت مزاب .وشهدت المنطقة تطورا ديمغرافيا بعد سقوط الدولة الرستمية حيث جلب النازحون إليها معهم المذهب الإباضي كما و استقطبت أيضا النازحين المالكيين من البدو الرحل و القبائل العربية وهم المذابيح وبني مرزوق و الشعامبة الوافدين من القطاع الوهراني ومن مختلف ربوع الصحراء الجزائرية وعاشوا حياة بدوية ثم استقر معظمهم في قصر متليلي ولما تزايد نموهم الديمغرافي في القرن السابع عشر الميلادي انتقل قسم منهم لتأسيس مدينة المنيعة وعرفوا باسم الشعانبة بينما عرف الماكثون منهم في متليلي بشعانبة برزقة (https://ar.wikipedia.org/wiki).

I- 2 - مصادر الفن التشكيلي الجزائري:

يشرح الباحث محمد الرصيص أن المقصود بالفن التشكيلي "تلك المجالات الفنية التعبيرية، التي ينتجها الفرد (الفنان) عن طريق خامات وأدوات متنوعة، وتقنيات, وهي : الرسم التشكيلي، التصوير التشكيلي ،والنحت ، وأعمال التوليف ، والجداريات، و الفخار، و الخزف ، والحفر" (محمد الرصيص2010، 13) و حسب محمود أمهز فإن " الفن التشكيلي

المنارة للاستشارات

هو الفنّ الذي يسعى إلى تحويل المادة الأولية إلى شكلٍ , كالعمارة ، والنحت، والتصوير ، والزخرفة "(أمهز محمود،1996. 502). ونجد عند رياض عبد الفتاح أنه " عملية إبداع وإعادة صياغة الواقع وفق ما يرى ويريد الفنان وليس كما هو كائن" (رياض عبد الفتاح،1974، 74).

و بتعقب مصادر الفن التشكيلي الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي نجدها ثرية ومتنوعة انتقلت عبر الأجيال على مر الزمن تضم الممارسات التشكيلية التي تعود لعصور ما قبل التاريخ و تراكم الخبرات المتوارثة من الحضارات التي تعاقبت على البلاد و أساليب الفن التقليدي البربري وفنون الحضارة الإسلامية , و بحلول الاحتلال الفرنسي الذي كان ثقافيا بالدرجة الأولى راجت أساليبه الفنية على حساب الفنون المتوارثة التي آلت إلى شبه الاندثار . و ترسخت من خلال المدارس الفنية الغربية بعد تأسيس مدرسة الفنون الجميلة بالعاصمة وفرعيها بقسنطينة ووهران بالإضافة إلى بعض المدارس الخاصة بإدارة بعض الفنانين الفرنسيين ومهما يكن من أمر فإن هذه المدارس لم تنشأ لأبناء الشعب الجزائري الذي كان آنذاك يصارع البؤس والتجهيل والكد من اجل تحصيل لقمة العيش ,و يمكننا القول أن المدرسة الجزائرية في الفن التشكيلي لم تر النور إلا بعد الاستقلال (عروسي عبد الحميد 2007 ، 10)

I- 3 – موضوع منطقة ميزاب في الرسم الاستشراقي :

لا شك أن الفنون الغربية بدورها لها مصادرها فقد نهلت من الفنون القديمة والوسطي و فنون عصر النهضة, واغتنت الممارسات الفنية التشكيلية عند الفنان الغربي بهذا التنوع والتراكم وتبلور بعدها الفن الحديث نتيجة التراكم و ثورة الحداثة والصناعة , معبدا الطريق لنشأة المدارس والاتجاهات الفنية التي أغنت الساحة الفنية الأوربية , ونظرا لشح الموارد الطبيعية الأوروبية في ظل الثورة الصناعية شنت الدول الغربية حملات توسعية للسطو على خيرات الدول الشرقية والبحث عن أسواق جديدة لمنتجاتها الصناعية، و الحقيقة أنه لطالما توجست الدول الغربية وعلى رأسها فرنسا خيفة من القوة العسكرية الجزائرية البحرية وأرقها الرهاب من المد الإسلامي فتعاونت على تحطيم و هذه القوة البحرية في معركة نافارين ، وهكذا خلا لفرنسا المنفذ إلى أسوار المحروسة فاخترقت الابواب الفولاذية واحتلت الجزائر .

المنارة للاستشارات

ww

و وظفت في احتلالها كل الوسائل لإحكام قبضتها على مستعمرتها واستخدمت الرسم والفن في الدعاية الإعلامية لحملاتها العسكرية , كما وجد الرسامون المستشرقون ضالتهم المنشودة و الجنة المفقودة التي رسختها حكايا شهرزاد والكتاب المقدس في مخيال المتلقي الغربي عن الشرق. و بالتالي وفرت لهم البلاد المستعمرة بمشاهدها الخلابة و إضاءتها المبهرة موضوعات جديدة وخصبة لإعمالهم الفنية الرومانسية والغرائبية والانطباعية والواقعية وحتى الوحشية والتكعيبية ولقت رواجا كبيرا في أوربا. ومن أهم الفنانين المستشرقين الذي وفدوا على الجزائر أبان الاحتلال واثروا في الفن الجزائري نذكر كل من ألكسندر جيني , فاسبار فوبر, انج تيسي , هنري ماتيس,ليون كوفي, أوجين دولاكروا, ادوار ماني , أوغست رونوار, ألبير لوبور و ناصر الدين دينيه وغيرهم .

ويعتبر الفنان "فرناندأرنودياس أول من تلفظ بتسمية "مدرسة الجزائر" في الفن التشكيلي وهو من بين من شجعوا وعملوا على تحريك وخلق الحركة الأدبية المنجزة في السنين الأخيرة للقرن التاسع ، والتي سبقت بقليل إنشاء فيلا عبد اللطيف بالجزائر (قليل سارة , (2017/2016)، 100).

و بالعودة للحديث عن غرداية في اللوحة الاستشراقية يجدر بنا الإشارة إلى أبرز الفنانين الغربيين الذين اتخذوا منها وجهة لأسفارهم أبان الاحتلال الجزائري ونذكر كلا من البرت قبريال , ماريوس بوفيول , فان منس ايزورد , نير جيان فرونسوا , اتيان دينيه , جيرارد هيوسر , جوساف ريمان والفونسو راي , سيمون موديزين , جورج سيبضنوف , جولي رابناس , جورج بوتي , ماكنم نوري وغيرهم

وهكذا استقطبت منطقة غرداية على غرار المناطق الصحراوية الأخرى عشاق المناظر الصحراوية و اجتذبت المولعين بموضة الغرائبية و شدت أيضا الانطباعيين عشاق الإضاءة القوية فتوافد عليها الرسامون زمرا وفرادى بحثا عن أفاق رحبة جديدة فيها وفي مختلف واحات صحراء الجزائر بعد أن استنفذوا مناهل بيئتهم الأصلية واستيأسوا منها في تقديم الجديد المبهر أو الغرائبي العجيب ، مدفوعين بنشوة الاستكشاف أو طلب الشهرة وحب الأسفار قرروا شد الرحال واكتشاف عالم الشرق المبهم ,ويسر الاحتلال الفرنسي أسفار الرسامين المستشرقين إلى البلدان الشرقية المحتلة وعلى رأسها الجزائر كما وفر لهم الحماية والمرافقة العسكرية في الكثير من الحالات مما مكنهم من التوغل إلى ابعد المناطق في

المنارة للاستشارات

عمق الصحراء كما ساهم في استقطاب كل الأيادي التي من شانها توطيد وتثبيت قواعده الاستعمارية التسلطية ،وكان للفنانين نصيب من هذه المهمة وهذا ما ورد في المقال الموسوم " بالوظائف الحقيقية للرسم الاستشراقي قبيل وإبان الاستعمار الفرنسي للجزائر " للدكتورة نادية قجال .

وعلى أي حال مهما كانت نواياهم فقد وجدوا عالما خصبا من التنوع الثقافي وبيئة صحراوية رائعة الجمال ألهمتم بمشاهد جديدة وفضاء مجهول ومتعة الاستكشاف ,و لعل أبرزهم وأكثرهم شغفا برسم مشاهدها الرسام(موريس بوفيول **Maurice BOUVIOLLE** **/1893-1971) الذي شبه هوسه بها بهوس الرسام** (ماريوس دي بوزون) بمنطقة القبائل

تلقى هذا الرسام المفتون بمنطقة ميزاب تكوينه الفني بالمدرسة الوطنية للفنون الجميلة في باريس ، في ورشتي (غابرييل فيرير وهنري روسو)، ولقي تشجيعا من الرسام (ماكسيم موفرا) حفزه على الذهاب إلى الجزائر. ثم أدى خدمته العسكرية مع أول فوج مشاة جزائري في البليدة. . ولفتت موهبته الفريدة الانتباه عام 1921 في صالون الفنانين الجزائريين والمستشرقين في الجزائر العاصمة. ونال جائزة عبد الطيف عام 1921 (مع جان بوشود). وامتثالا لنصائح واهتمام (جورج أنطوان روشغروس وماكسيم نويريه) ، عرض لوحة" سوق في غرداية " في صالون الفنانين الفرنسيين سنة 1922 ، مما أكسبه الميدالية الفضية وضمن نجاحه بالتأكيد. كما حصل على الجائزة الفنية الجزائرية الكبرى عام 1931 ، ، وتوج أيضا بميدالة عام 1942 من طرف اتحاد فناني شمال إفريقيا

.وكانت غرداية من بين مواضيعه الرئيسية ، فقد اظهر ، فضولا كبيرا في مشاهد تمثل الأهالي و المدينة وسوقها ،و مشاهد العزف والرقص ، حتى لقب برسام ميزاب . و في نهاية الحرب العالمية الثانية غادر الجزائر . وأصيب بالشلل النصفي في عام 1961 ، واستمر برغم كل شيء في رسم مناظر لمرسيليا التي استقر بها . و ظل ، شاعرًا ، "للقيم الثابتة لعالم متغير ... وفقًا لفن عصره في عقد العشرينيات من القرن الماضي (wikipedia.org/wiki/Maurice_Bouviolle)

لاشك أن هذه الورقة لا تتسع للإلمام بأعماله المخصصة لمنطقة ميزاب لكن يمكننا انتقاء بعض اللوحات التي نبرز من خلالها أسلوب الفنان في التعاطي مع هذا الموضوع ونأخذ على سبيل المثال لوحته الموسومة "بغرداية "

المنارة للاستشارات

ww

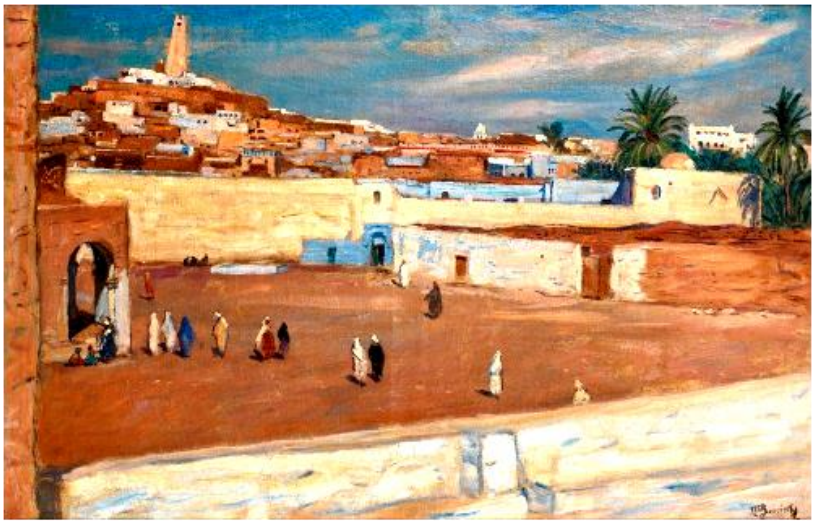

موريس بوفيول " غرداية" زيت على قماش ممضية في الأسفل على اليمين . 100 x 65,5 سم

(Bibliographie : M. Vidal-Bué, 2002*)

و بالتوقف عند هذه اللوحة يتضح أن المدينة هي المعنية بالرسم وليس العنصر البشري الذي اخذ مخططات بعيدة كأكسيسوار تابع للمشهد بمعنى ان الرسام لم يصور الشخوص في المخطط الأمامي كما هو الحال في الواقعية مما يغفل البعد العاطفي للاحساس الإنساني وعلى حذو الرسم الانطباعي نقل الرسام ببقع لونية متجاورة محددة الأشكال والدرجات انعكاس الضوء الطبيعي لطقس تتغشاه الغيوم العابرة على الأجزاء والعناصر المعمارية للمدينة , واحتلت إحدى ساحاتها المخطط الأمامي فيما تراصت المنازل على المرتفع في الخلفية في نسيج معماري يحاكي بأجزائه الفن التكعيبي للمرحلة التحليلية ويبرز صبر الفنان وشغفه في نقل تلك المكعبات وظلالها ودرجاتها اللونية في بناء تشكيلي يستمد جماليته من الفن المعماري الميزابي الذي أبهر المهندسين الغربيين قبل الرسامين . وتعلو المدينة في الأفق البعيد المئذنة بكل ما تحمله من معاني دينية و أمنية حيث يطلق عليها باللهجة المحلية "أعسّاسْ نْ تْغَرْدايْتْ" اشتقاقا ، من العسة والمراقبة وذلك نظرا لاحتلالها مكانا هاما على أعلى قمة بالمدينة وبالتالي فهي تؤدي وظيفتين رفع صوت الآذان للصّلاة و الحراسة .

يطغى على المشهد اللون الأمغر للبيئة الصحراوية ودرجاته الكثيرة ولا يمكن الحديث هنا عن سيميائية الألوان والفنان أسير الألوان التي تقترحها البيئة مع إضفاء لمسات فنية

المنارة للاستشارات

تتركها آثار الفرشاة بتقنية انطباعية ترصد الإضاءة التي تبدو بها الأشياء . ومع أن المشهد يبدو انطباعيا لا يعبأ بالبعد الانساني إلا أن المتأم فيه لا ينكر سرده لواقع الحياة اليومية الاجتماعية عن بعد بمنظور يجبر الرسام على التقهقر إلى الخلف لضبط صورة المدينة كاملة في إطار والمدينة كما نعلم هي مسرح الحياة الاجتماعية .

والملاحظ أيضا أن الرسام لم يعمد إلى استعمال النسب الجمالية للتقسيم الذهبي ومنح لوحته تكوينا تحكمت فيه زاوية النظر المنتقاة و أتاحه المكان الذي رسم منه المشهد .

وضمن الأسلوب نفسه تندرج لوحته الموسومة "بساحة السوق في غرداية "

موريس "ساحة السوق في غرداية " زيت على لوح

ورغم ان الشخصيات أحتلت المخطط الأمامي مقارنة باللوحة السابقة إلا انه لم يركز على تفاصيل الملامح ونقل لنا الحياة اليومية في السوق من خلال حركات تجار الأغنام والزبائن ووصف الأجواء الطبيعية لهذه السوق الشعبية الصحراوية ووصف انواع اللباس وتفاصيل العمارة التقليدية وعناصرها المعمارية من عقود وأعمدة وشبابيك وتجسيد للملمس وتمثيل للضوء وانعكاساته الجميلة المدروسة بعناية

ومهما يكن من أمر فإن لوحاته الكثيرة خلدت إطلالات مختلفة على غرداية تتيح للمتلقي اليوم السفر في الزمن و ساهمت في حفظ جزء من التراث الخاص بالمنطقة.

المنارة للاستشارات

و من ضمن المستشرقين الذين مروا بغرداية وتركوا بصمات فنية تستحضر روح المكان والزمان :المستشرق "ALBERT-GABRIEL RIGOLOT, (1862-1932) (البرت غابريال ريجولوت)

صورة للرسام البارت غابريال

بدأ ألبرت غابريال (Pierre Petit /Jules Martin, 1897) دراساته الفنية في مدرسة في الدائرة السادسة عشرة في باريس وأصبح تلميذًا لدى (ليون جيرمان بيلوز) و(أوغست ألونجي). وكانت انطلاقته الفنية بمشاركته في صالون الفنانين الفرنسيين في عام 1886 ، وفي العام نفسه حصل في تخصص الفحم على الميدالية الفضية في المعرض الدولي للأبيض والأسود. ثم أصبح مدرسا في أكاديمية جوليان في باريس (https://fr.wikipedia.org/wiki/Albert_Rigolot)

وتأثر البرت غابريال بمدرسة باربيزون ، ثم أصبح مستشرقًا لامعًا بعد رحلته إلى الجزائر عام 1896

حيث أظهر ولعا برسم القوافل والمناظر الطبيعية الصحراوية في بوسعادة والقنطرة وغرداية عرض ريجولوت أيضًا ست لوحات عن ميزاب وغرداية في جمعية الرسامين المستشرقين الفرنسيين بين عامي 1897 و 1906.(Marion VIDAL-BUE, 2000, 308) و اخترنا من أعماله لوحة "البئر في غرداية, Le Puits a Ghardaïa وبتكوين فيه الكثير من الجماليات في انتقاء النسب ركز الرسام على البئر في المشهد الأمامي فيما ظهرت أسوار القصر الصحراوي في المخططات الخلفية . وهنا أيضا بدت الشخوص القريبة من البئر صغيرة تابعة للمشهد الذي تطغى عليه درجات من الأمغر لكن تغلب عليها ضبابية البيئة الصحراوية ورغم تلك الضبابية تتسم اللوحة بمهارة فائقة في تمثيل ضوء الصحراء

المنارة للاستشارات

بتفككات جد مدروسة و درجات لونية متقاربة وهذا في الحقيقة ما يمثل أكبر عائق في تمثيل الصحراء كما شرح أوجان فرومونتان* . إن هذه اللوحة تصف ببلاغة بساطة الحياة اليومية في الصحراء وهدوئها

لوحة البئر في غرداية البرت غابريال

وتنقل جانبا من الحياة اليومية حيث يجد الأهالي متعة في أخذ شيء من الراحة أمام الأبار والعيون وتجاذب أطراف الحديث فيما ينهمك بعضهم في جلب الماء , على أن البئر بكل ما يحمله من دلالات ومعاني يمكنه ان يمنح الصورة قراءة موازية يحق للمتلقي استنتاجها ولا تلزم بالضرورة الرسام الذي لا شك انه تذوق في شكل البئر وما حولها من شخوص وديكور صحراوي تقليدي جمالية لا تقاوم لتمثيلها , فالبئر رمز كتمان الأسرار و القلب النابض للحياة في بيئة تشح فيها المياه فهو ايضا رمز الحياة (askart.com/artist/AlbertGabriel_Rigolot).

وفي خلاصة القول فإن هذه اللوحة أيضا ترصد جانبا من الحياة الاجتماعية بمنطقة غرداية و هي توثيق لتراث المنطقة .

إن هذه النماذج غيض من فيض وهذه الورقة لا تتسع للمزيد ولا بأس أن نورد في عجالة بعض الأعمال المتنوعة عن منطقة ميزاب منها دراسة للفنان (فان مانس إيسيدور)" Van Mens Isidore (1890-1985)" موسومة "بركاب الجمال في تفاوض بغرداية " Chameliers En Négociation Ghardaïa,

المنارة للاستشارات

ركاب الجمال في تفاوض بغرداية

ولوحة الفونس ري "Alphonse REY (1865-1938)" "جمل يقابل مدينة بونورة في غرداية, "Chamelier Face À Bounoura À Ghardaïa" (Orientalisme & Art Islamique, 35).

"جمل يقابل مدينة بونورة في غرداية

ولوحة الرسام غونثر لوبر "Gunther Loper (1916-1993)" " مشهد العطف بغرداية , "Vue D'el atteuf À Ghardaïa (artsalesindex.artinfo.com/auctions/Alphonse-Rey-4158185/Chamelier-face -Bou-Noura

المنارة للاستشارات

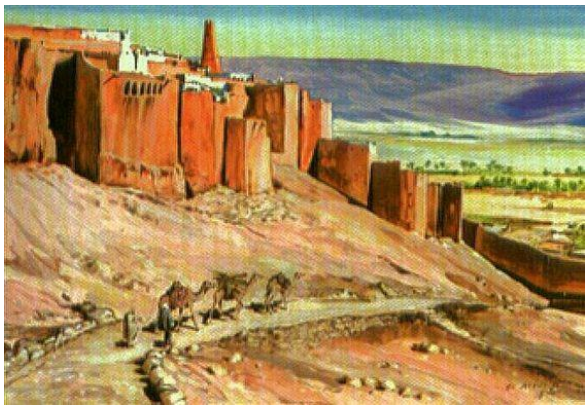

غونثر لوبر "Gunther Loper (1916-1993)" " مشهد العطف بغرداية , Vue D'el atteuf À Ghardaïa

و لوحة "سوق غرداية" للفنان المستشرقArrigoni Neri Jean Francois اريجوني نيري جان فرانسوا (1937-2014) (Orientalisme & Africanisme, 2007, 66)

سوق غرداية

www.askart.com/artist/AlbertGabriel_Rigolot

المنارة للاستشارات

خاتمة :

وفي الختام نعود مرة ثانية لنذكر بإسهامات الفنون التشكيلية في رصد وتتبع مسارات التاريخ الحضاري للجزائر و توثيق وتسجيل التراث وإضافة جوانب كثيرة من الجمالية والتذوق الفني في الأعمال الإبداعية المنجزة , وبعدما تم فحصه من نماذج تناولت في موضوعاتها منطقة ميزاب بمهارة عالية وجمالية راقية بات من الواجب أن ننوه بدور الفن الاستشراقي في جانبه الايجابي الذي حفظ جزءا مهما من ذاكرة الجزائر التي غيبها العامل الاستعماري . وأنقذ ما تيسر إنقاذه من الطمس أثناء توسع المدنية الاستعمارية على حساب التراث الجزائري .وظل الاستعمار يحرف و يحور كل المقومات الوطنية الثقافية والتاريخية لبلادنا الجزائر ، بالإضافة إلى عامل الزمن والظروف التي واجهتها سياسة الإعمار بعد الاستقلال . فالفن التشكيلي تعبير صامت يختزل كلاما طويلا و يغني عنه في وصف ما تعجز دونه الأقلام في تدوين التاريخ وحفظ التراث الحضاري والثقافي وبالتالي صار من الأهمية بمكان دراسته بما يخدم ترميم الذاكرة وكتابة التاريخ وينعش الاعتزاز بالماضي العريق .

المراجع :

باللغة العربية :

- إبراهيم محمد طلاي، المدن السبع في وادي ميزاب،جمعية التراث يزقن ،غرداية،ب ت ،
- أمهز محمود،(1996)، التيّارات الفنيّة المعاصرة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ، ط1.
- محمد الرصيص،(2010)، تاريخ الفن التشكيلي السعودي،ط1،الرياض، وزارة الثقافة والإعلام.
- رياض عبد الفتاح،(1974)، التكوين في الفنون التشكيلية، دار النهضة العربية، مصر، 1974
- عروسي عبد الحميد ,(2007)، الفن التشكيلي الجزائري (عشرية 70و80)

باللغة الفرنسية :

- Marth et Edmond Couvions , (1926) Kharidjisme :Momegraphie du M'Zab imprimerie Marocain vigie, Casablanca, Paris
- Marion VIDAL-BUE, L'Algérie des peintres, 1830-1960, Edition 2000, Paris

المنارة للاستشارات
ww

- Théophile Gautier, (1845) Voyage pittoresque en Algérie, par Madeleine Cottin, Genève-Paris, librairie Droz

- Pierre Roffo,(1934) contrôlabilité à l'étude de la préhistoire du Sahara septentrional ancienne imprimerie, Alger

- Pierre Petit / Jules Martin, Nos peintres et sculpteurs, graveurs, dessinateurs portraits et biographies suivis d'une notice sur les Salons français depuis 1673, les Sociétés de Beaux-Arts, la Propriété artistique, etc, Paris, E. Flammarion, 1897, Domaine public

الموسوعات و الداواوين :

- ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته ، دليل المواقع و المعالم التاريخية لولاية غرداية ،وزراة الثقافة، غرداية ،الجزائر، 2012

- ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته ، مسيرة رائدة في اعادة التراث الثقافي ،وزراة الثقافة، غرداية ،الجزائر، 2015 .

- Bibliographie : M. Vidal-Bué, « L'Algérie du Sud et ses peintres », 2002. M. Vidal-Bué, « Les Artistes de l'Algérie », 2001

- Orientalisme & Art Islamique, Catalogue-Orientalisme.

مو اقع النترنت :

-موسوعة ويكيبديا الالكترونية ، غرداية https://ar.wikipedia.org/wiki/ اطلع عليه يوم 2018/10/8

- **https://fr.wikipedia.org/wiki/Maurice_Bouviolle**

- https://fr.wikipedia.org/wiki/Albert_Rigolot

- http://www.askart.com/artist/AlbertGabriel_Rigolot/11065021

- http://www.askart.com/artist/AlbertGabriel_Rigolot/11065021

الأطروحات :

- قليل سارة , (2017/2016)،رسالة دكتوراه في الفنون التشكيلية "تجليات الفن الإسلامي في أعمال محمد راسم ومحمد تمام", جامعة تلمسان, الجزائر

المنارة للاستشارات

ww